مجلة المختار للعلوم الإنسانية 15 (1): 108-123، 2011

Research Article

Open Access

السلطان عبدالحميد الثاني و دوره في مواجهة الصهيونية

سليم رجب محمد[1]*

قسم التاريخ، كلية الاداب، جامعة عمرالمختار

Doi: https://doi.org/10.54172/njvf3y05

المستخلص : السلطان عبد الحميد الثاني، شخصية تثير اهتمامًا دائمًا، تظل محل دراسات ومناقشات علمية واسعة حتى بعد وفاته في عام 1918. تستكشف هذه الدراسة أهميته في قضية الصهيونية، معتمدةً على مصادر تركية مهمة، بما في ذلك مذكراته. رفض السلطان عبد الحميد الثاني السماح باستيطان اليهود في فلسطين، وحفظه لهوية القدس، وثباته أمام الحوافز المالية، كل ذلك يدل على التزامه بالدفاع عن مصالح المسلمين. تسلط هذه الدراسة الضوء على تعقيدات حركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر وتداعياتها، مما يساهم في فهم أعمق لهذه الفترة التاريخية.

الكلمات المفتاحية: السلطان عبد الحميد الثاني، الاستيطان اليهودي، القرن التاسع عشر.

Sultan Abdul Hamid II and His Role in Confronting Zionism

Saleem Rajab Mohammed

History Department, Faculty of Arts, Omar Al-Mukhtar University

Abstract: Sultan Abdul Hamid II, a figure of enduring interest, remains the subject of extensive scholarly studies and discussions even after his death in 1918. This research explores his significance in the Zionist issue, drawing on important Turkish sources, including his memoirs. Sultan Abdul Hamid II's refusal to allow Jewish settlement in Palestine, his preservation of Jerusalem's identity, and his steadfastness in the face of financial incentives demonstrated his commitment to defending Muslim interests. This study sheds light on the complexities of the late 19th-century Zionist movement and its implications, contributing to a deeper understanding of this historical period.

Keywords: Sultan Abdul Hamid II, Jewish settlement, 19th century.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

التمهيد

يعتبر موضوع شخصية السلطان عبدالحميد، موضوعاً متجدداً دائماً يفرض نفسه، ويكفي لإثبات هذا أنه مات عام 1918م، ومازالت الدراسات والمناقشات حوله قوية كثيرة ومكثفة ومستمرة في البلاد الإسلامية وفي العالم العربي وفي تركيا وفي البلاد الأوروبية أيضاً، والدراسات عنه تظهر وتنتشر يوماً بعد يوم وتضيف الجديد إلى التاريخ، تغُير تفكيراً مضى وتضيف تفكيراً جديداً .

وتأتي أهمية هذه الدراسة تحديداً عن السلطان عبدالحميد الثاني في كونها تعتمد على العديد من المصادر التركية المهمة من بينها مذكرات السلطان عبدالحميد والتي تكشف عن معلومات هامة في تاريخ الصراع بين الصهيونية والعالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة وخطورة فلسطين في الوجدان السياسي الإسلامي .

وقد تم تقسيم هذا البحث إلى عدة عناصر حيث ستقرأ تعريفاً بالسلطان عبدالحميد الثاني ثم المسألة الصهيونية في الدولة العثمانية وموقف السلطان عبدالحميد من الهجرات اليهودية وإجراءاته للحيلولة دون الإستيطان اليهودي في الأراضي المقدسة كما ستقرأ المباحثات التي قامت بين السلطان عبدالحميد والصهيونية وكيف تعامل السلطان مع المسألة الصهيونية التي أخذت تبرز خلال القرن التاسع عشر، كأحد التيارات القومية التوسعية ودوره في الحفاظ على هوية القدس والتي انتهت أخيراً بعزله ونفيه إلى سلونيك وهي مدينة يغلب عليها الطابع اليهودي حينما رفض السلطان إقامة مأوى لليهود في فلسطين ورفض إغراءات مالية هائلة قدمها هرتزل الذي طالما أكد على أن تظل القدس تابعة للدولة اليهودية وكيف كثف هرتزل نشاطه في ألمانيا وفي بريطانية حين بعث بنسخة من كتابة الدولة اليهودية إلى المستشار الألماني بسمارك مع رسالة استعطاف حول تأسيس دولة يهودية في فلسطين.

أولاً : السلطان عبدالحميد الثاني :

السلطان العثماني عبدالحميد الثاني 1876- 1909م تولى الحكم بعد خلع السلطان مراد الخامس وبقى فيه 33 سنة متواصلة، وأختلف الباحثون في تقييم شخصيته وعهده الذي يعتبر من أكثر عهود التاريخ العثماني اضطراباً في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

والده السلطان عبدالحميد أول سلطان في آل عثمان يُضفى على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية، إذا أنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وآمر بإصدار فرمان التنظيمات عام 1854م وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهد التنظيمات وهو إصطلاح يعني بتنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، بهذا الفرمان ثم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة وتستلهم الفكر الغربي في التقنية وإقامة المؤسسات [1].

تولى الحكم وعمره 34 عاماً حيث ولد في سنة 1876م وكان ذكياً واصبح داهيه وكان معتدل السلوك في شبابه وغير مندفع وراء الملذات وكان ضعيف البنية وربما ورث ذلك من أمه وكانت تجذبه النساء الذكيات أكثر من الجميلات وكان يعيش في قصره في تارابيا المطلة على البسفور، وكانت حياته بسيطة خلافاً للبشوات الأغنياء وكانت حاشيتة صغيرة قبل تولي السلطنة حيث تتألف من ضابط مرافق وسكرتير وطبيب هو صديقه ماثروا ياني الذي كان يمده كما كان يفعل صديقه الإنجليزي طومسون أحد كبار التجار في بيرا وكان متمسكاً بالدين ويجنح إلى الصوفية ويقوم بالفروض الدينية كأي مسلم ورع وكان يصلي أمام الأضرحة خاصة أمام ضريح جده السلطان محمود الثاني الذي ورث عنه الرقة والذكاء والمهارة السياسية .

شاهد عبدالحميد والده ومن بعده عمه السلطان عبدالعزيز يحميان حركة الأخذ عن الغرب، كما شهد أيضاً ولمس عن قرب أطماع الدول الغربية وروسيا في الدولة العثمانية ورأى أنه تدخل مرسوم ومخطط له وفيه دمار الدولة العثمانية، وكان عليه كمسؤول عن دولته مواجهة هذه الأطماع وإيجاد حل لمشكلتها، فأعتمد على سياسة الإيقاع بين القوى العالمية آن ذاك بحيث تدخل في حربِ فيما بينها ورأى السلطان عبدالحميد أن هذه الحرب من شأنها تصفية قوى هذه الدول وإحداث معادلة في توازن القوى العالمية وفي أثناء كل ذلك يعمل على تجميع القوى الإسلامية المبعثرة في العالم في مواجهة الأطماع الغربية والصهيونية[2].

ثانياً – المسألة الصهيونية في الدولة العثمانية :

من المعروف أن الصهيونية برزت في القرن التاسع عشر كأحد التيارات القومية والتوسعية، غير أن الأيديولوجية اليهودية حتى هذا الوقت لم تتجاوز المجالات الدينية والثقافية وبدءاً من هذا التاريخ تم تنظيمها سياسياً وتحولت إلى تنظيم قومي عنيف .

ويعد ثيودور هرتزل المهندس الحقيقي للصهيونية العالمية، إذ نضجت الأيديولوجية اليهودية تحت زعامته وتحولت إلى قضية عالمية، وأصبح الهدف الأساسي للصهيونية : إقامة دولة يهودية مستقلة . ولكن أثير الجدل بأفريقيا أو الأرجنتين في أمريكا الجنوبية أو مقدونيا في البلقان أو بلاد ما وراء النهرين. وأخيراً تقرر أن تقم في الأرض الموعودة أي في فلسطين التي كانت جزء من أراضي الدولة العثمانية . ولكي تتمكن الحركة الصهيونية من تحقيق هذا الهدف سعت إلى إقناع السلطات العثمانية باستيطان اليهود في أراضي فلسطين ومناشدة الدول العظمى لممارسة الضغط على الدولة العثمانية .

في سنة 1897م عقد المؤتمر الأول للصهيونية في مدينة بازل السويسرية حيث تم اختيار هرتزل رئيساً للمجلس التنفيذي الذي تم تشكيلة في المؤتمر نفسه. وغدا هرتزل يتحرك وكأنه رئيس دولة مشكَّلة

في النفي. ويبدو من مجريات الأحداث أن التحركات الصهيونية وضعت في مفترق الطريق: إما يتفاعلون مع المجتمعات التي يعيشون فيها أو يواصلون حياتهم كطائفة منعزلة أو يسعون إلى إقامة دولة مستقلة في فلسطين والهجرة إليها إن تطلب الأمر، أما النتيجة التي تمخض عنها هذا الأمر أن الصهيونية لم تقبل من قبل كل اليهود، بل إنها رفضت من قبل بعض الأوساط اليهودية. غير أن الموقف الأخير تم تبنيه من قبل اليهود العثمانيين. ولكي يبلغ الصهيونية غايتهم قاموا بإقامة منظمات مختلفة في داخل الدولة العثمانية وخارجها[3].وذلك من أجل تنظيم شؤونهم الداخلية وتكوين كيان منظم لهم ولتحقيق أهدافهم .

أما ما يتعلق باليهود فالمعروف أنهم كانوا ينتشرون على شكل أقليات في أماكن مختلفة من الدولة العثمانية، غير أنهم لم يشكلوا نسبة ملفته للنظر في فلسطين، ومع هذا فقد أقرت الإدارة العثمانية بالوجود اليهودي في فلسطين وغضت الطرف عن هجرتهم إليها بين حين وأخر . وطبقاً للروايات التاريخية فإن كان هناك ومنذ القدم جماعة يهودية تعرف بـ(Yishuv يشوف) وكانت هذه الجماعة اليهودية تتمتع بالجنسية العثمانية وتتكون من اليهود السفراديم الذين تفاعلوا مع السكان المحليين بشكل كبير واليهود الاشكنازيم الذين وفدوا مع بعض الهجرات واستقروا بالدرجة الأولى في المدن الأربعة التي يعتبرها اليهود مقدسة. وكان قسم من اليهود يمارسون التجارة، أما الأكثرية منهم فكانوا يعتمدون في تأمين أمورهم المعاشية على الهبات اليهودية العالمية التقليدية .

أما تعامل الحكومة العثمانية مع اليهود فنعرف أن العثمانيين حذوا حذو الدول الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين من أهل الكتاب النصارى واليهود. إذ اتبعوا معهم سياسة التسامح. ويستشف من المصادر العثمانية أن الإدارة العثمانية في فلسطين تركت للطوائف غير الإسلامية بما فيهم اليهود حرية ممارسة شعائرهم الدينية ولم تتدخل مطلقاً فيها. وفي ظل هذه السياسة برزت التنظيمات الخاصة بالطوائف الدينية في فلسطين. إذ نالت هذه الطوائف امتيازات كثيرة من حيث إقامة الكنائس والمدارس الدينية والجمعيات التبشيرية وقد أدت هذه التطورات إلى منازعات حادة من أجل المصالح بغية التحكم بالأماكن المقدسة والأراضي الفلسطينية .

ولم يكن اليهود في فلسطين في بداية العهد العثماني يشكلون نسبة تذكر بالنسبة إلى عدد السكان. إذ كان العرب المسلمون وعلى مر التاريخ العثماني يشكلون أغلبية مطلقة في فلسطين. ففي سنة 1880م كان العرب لم يسجلوا في قيود السكان أي لم يدخلوا في هذه النسبة[4].

والحقيقة إن عدد اليهود في فلسطين عامة وفي القدس بشكل خاص كان قليلاً جداً في بداية الأمر . فقد ذكر القنصل الإنجليزي في فلسطين بليج Blech في تقرير له في 16 تشرين الثاني سنة 1907م أنه لم يكن يوجد في القدس قبل مائة عام إلا أقل من خمسمائة يهودي . وبلغ عددهم في سنة

1907/1906م 6068 من أصل مجموع السكان البالغ 78,498 . وقفز هذا العدد إلى 18,190 من أصل 120,921 كانوا يشكلون مجموع السكان في سنة 1914م[5].

وينبغي ألا نلقي اللوم على السلطات العثمانية ونحملها مسؤولية هذه الزيادة المطردة في عدد اليهود في القدس وفلسطين بمرور الزمن، فالحكومة العثمانية رفضت من حيث المبدأ تغيير الوضع الإثني لفلسطين واتخذت إجراءات صارمة تجاه هجرة اليهود إلى فلسطين، وحظرت استيطانهم تحت أية ذريعة. غير أن اليهود كانوا يستغلون الثغرات الموجودة في قوانين وأنظمة الدولة، كما كانوا في الوقت نفسه يسعون إلى حصول الحماية الدولية لتسهيل استيطانهم في فلسطين.

ومما يجدر ذكره أن الزيادة التي تحققت في عدد اليهود في فلسطين كانت بلا شك بسبب الهجرات التي استهدفت الأراضي الفلسطينية المختلفة، ولكي نتعرف على أبعاد هذه الهجرات ينبغي التوقف عندها قليلاً .

رابعاً – موقف السلطان عبدالحميد من الهجرات اليهودية :

من المعروف أن معاداة اليهود ازدادت في الدولة الأوروبية نتيجة للحركات القومية التي اجتاحت أوروبا، وتعرض اليهود في روسيا إلى الاضطهاد (1881–1882م)، اضطروا على أثرها إلى الفرار من ديارهم واللجوء إلى أراضي الدولة العثمانية لم تمنع في بداية الأمر استقرارهم في فلسطين، لكنها شعرت بعد سنوات عديدة بعدم الارتياح من هذا الأمر، فأصدرت لأول مرة في سنة 1887م أوامر تحظر الاستيطان اليهودي في فلسطين وعلى وجه الخصوص في القدس[6].

وعلى أية حالة فهناك العديد من الأوامر السلطانية تحظر هذا الاستيطان وعلى وجه الخصوص من قبل اليهود الروس، لأن السلطان العثماني كان يخشى أن يؤدي هذا الأمر إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين في المستقبل، ففي أمر يعود تاريخه إلى 21 ذي القعدة سنة 1038 (28 – 6 – 1891م)، ورد على لسان السلطان عبدالحميد الذي قال إن قبول المطرودين من كل حدب وصوب في البلاد السلطانية غير جائز، لأن ذلك قد يؤدي إلى تشكيل حكومة يهودية في القدس في المستقبل. والبلاد السلطانية ليست أراضي غير مأهولة، لذا ينبغي سوقهم إلى المستقبل. والبلاد السلطانية ليست أراضي غير مأهولة، لذا ينبغي سوقهم إلى أميركا، وينبغي إعادتهم إلى سفنهم وإرسالهم إلى أميركا، وعلى مجلس الوزراء اتخاذ قرار قطعي بهذا الخصوص وعرضه على، وإذا كانت أوربا المتمدنة تمتنع عن قبولهم وتجلوهم عن بلدانها، فلم نقبلهم نحن.

ويستدل من هذا إن السلطان عبدالحميد الثاني كان يخشى من قيام دولة يهودية في فلسطين، وكانت خشيته في محلها .. ولم يمر أسبوع على صدور هذا الأمر، أصدر السلطان أمراً ثانياً في 28

ذي القعدة 1308هـ/ (5-7 – 1891م) كرر فيه الخطر الذي يكمن وراء استيطان اليهود وذكر إن قبول هؤلاء اليهود مواطنين والسماح باستيطانهم هما في غاية الخطورة. لذا ينبغي عدم قبولهم، لأن ذلك قد يؤدي إلى بروز مسألة تأسيس دولة يهودية في المستقبل. لذا ينبغي عرض الموضوع إلى مجلس الوزراء اليوم بأسرع ما يمكن.

وبعد يوم واحد من صدور هذا الأمر، صدر الأمر الثالث أي في 29 ذي القعدة 1308 هـ/(6 – 7 – 1891م) وجاء فيه :

((إن الدولة المتمدنة (يقصد بها روسيا القيصرية) التي طردت هؤلاء اليهود من أراضيها والدول الأخرى التي لم تقبل بهم، لم تلق أي اعتراض ولم تتعرض إلى الانتقاد. فبأي حق تبدي هذه الدولة اعتراضاتها وتتخذ من عدم قبولنا اليهود حجة علينا. وإذا كان هناك ثمة حق للاعتراض فليوجه نحو الدول المعينة. وعليه فأينما سكن اليهود أو اتخذت التدابير اللازمة بشأنهم، فإنهم وكما يبدوا سيغزون فلسطين عازمين في نهاية المطاف وبتشجيع الأوروبيين ورعايتهم على تشكيل دولة يهودية فيها. وإن هؤلاء اليهود لا يمارسون العمل في الزراعة والفلاحة بل ينوون العمل على إلحاق الأضرار بالأهالي كما فعلوا في البلدان التي طردوا منها. ونظراً إلى أنهم كانوا يزعمون الهجرة إلى أمريكا فمن المناسب أن يواصلوا هجرتهم إليها ..))[7].

ويبدو من هذا الأمر الأخير أن السلطان عبدالحميد وضع النقاط على الحروف بشأن الكثير من المسائل المهمة. إذ أن الدولة العثمانية تعرضت إلى ضغط الدولة الغربية بشأن قبول هؤلاء اليهود في الوقت الذي سدت أبوابها بوجه هؤلاء. وطالما أن هذه الدول عازمة على استيطان اليهود في فلسطين فإنها ستمهد السبيل لهم من أجل ذلك. كما يبدوا أنه أشيع بأن هؤلاء اليهود يمارسون الزراعة والفلاحة أي أنهم في حالة استيطانهم فلسطين سيكونون عناصر منتجة للدولة العثمانية، غير أن السلطان رد على هذا وكشف عن النوايا الشريرة لهم وهي إلحاق الأضرار بالأهالي أي اغتصاب أراضيهم وطردهم منها، وهو ما تحقق بمباركة الاستعمار البريطاني .

ويستشف من صدور هذه الأوامر الثلاثة على التوالي في غضون فترة قصيرة مدى اهتمام السلطان الجدي في هذا الصدد وحرصه على حماية فلسطين من أي غزو أجنبي عليها .

والحقيقة أن الدول الأوربية على الرغم من الكره الذي كانت تكنه لليهود استغلت مسألتهم للضغط على الباب العالي لإسكانهم في منطقة إستراتيجية، وعند تحقيق هذا الأمر فإن هذه الدول ولاسيما بريطانيا ستوفر لها بذلك منفذاً إلى العراق ثم الخليج العربي الذي يشكل بداية الطريق البحري المؤدي إلى الهند مستعمرة بريطانيا . وهذه الدول وعلى وجه الخصوص روسيا وبريطانيا اللتان استولتا على أماكن

مختلفة من آسيا تضم الكثير من المسلمين. كانتا تخشيان كثيراً من سلاح الخلافة.كما يسميه عبدالحميد.[8] والذي ما زالت قبضته بيد السلطان عبدالحميد بحكم كونه خليفة يمثل المسلمين في المعمورة .

خامساً – إجراءات السلطان عبدالحميد للحيلولة دون الاستيطان اليهودي في الأراضي المقدسة :

عندما أدرك السلطان عبدالحميد نوايا الدول الغربية واليهود وإصرارهم المتواصل على مسألة الاستيطان ولكي يقطع الطريق أمامهم ويحول دون تحقيق أهدافهم، اتخذ جملة من الإجراءات، فأصدر أوامره عام 1887م بجعل القدس سنجقاً مستقلاً عن ولاية الشام وربطه بالباب العالي ليكون تحت إشراف الحكومة المركزية في إستانبول[9] .

وأصدرت الحكومة العثمانية أوامرها بتحديد مدة اليهود الأجانب في فلسطين إذ منعت بقائهم أكثر من شهر وقامت بإبلاغ هذا القرار إلى متصرف القدس والقنصليات الأجنبية الموجودة في المنطقة .

والحقيقة أن تطلعات اليهود الذين يحملون الجنسية العثمانية إلى الاستيطان في فلسطين بما فيها القدس قد أثارت مشاكل جديدة للحكومة العثمانية التي كانت تسعى إلى عدم تغيير التركيبة السكانية للمنطقة. ولهذا أصدرت في 14 جمادي سنة 1318هـ/(9 – 10 – 1900م) تعليمات نظمت بموجبها زيارة اليهود إلى الأماكن المقدسة في فلسطين اشترطت فيها على اليهود الذين يحملون الجنسية العثمانية أو الأجنبية الراغبين بالسفر إلى فلسطين أن يحصلوا على تذكرة سفر يذكر فيها جنسيتهم ومهنتهم وسبب زيارتهم في المادة الأولى، وأن يقوموا بتسليم هذه الوثائق عند وصولهم إلى المرافئ في بيروت أو القدس إلى موظفي الجوازات، ويحصلون منهم، لقاء رسم قرش واحد على تذكرة سفر مؤقتة ملونه تختلف عن التذاكر الأخرى ويُدون فيها إذن الزيارة والإقامة في فلسطين لمدة ثلاثة أشهر. والذين يتجاوزون هذه المدة من اليهود مواطني الدولة فيتم إخراجهم من أراضي فلسطين من قبل قوات الدرك. أما اليهود الأجانب فيتم إخراجهم بواسطة قنصليات حكوماتهم في المادة الثانية. وفرضت المادة الثالثة من هذه التعليمات على موظفي الجوازات تنظيم جدول شهري بأسماء الزوار اليهود وإبلاغ موظفي الجندرمة عن الحالات المتجاوزة وإلا سيتحملون المسؤولية من جراء ذلك[10].

وعلى الرغم من كل الإجراءات التي اتخذتها حكومة السلطان عبدالحميد للحيلولة دون استيطان اليهود في منطقة فلسطين، إلا أنها فشلت في تحقيق ذلك. وعلى العكس من هذا كان عدد اليهود يزداد يوماً بعد يوم حتى بلغت هذه الزيادة حداً أصبحت تولد ردود فعل عنيفة من قبل الأهالي العرب، كما كان اليهود يدعون بأنهم يعاملون معاملة سيئة. وكان هذا الإدعاء غير حقيقي بلا شك والغرض منه كسب عطف الرأي العام العالمي. إذ نعرف أن سكرتيرة القنصلية الإنكليزية في القدس مسز فين (Mrs .Finn)

كتبت في رسالتها المؤرخة في 7 كانون الثاني سنة 1906م إن اليهود لا يتعرضون إلى الاضطهاد في الدولة العثمانية بل على العكس من ذلك فإنهم على خلاف ما هم في الدول الأخرى، يعيشون ومنذ 400 سنة تحت سقف آمن في هذه البلاد. ما ذكرت بأن جماعات اليهود قدمت شكواها إلى السلطان في سنة 1892م لمواصلة حماية اليهود الذين تم طردهم من اسبانيا سنة 1492م[11].

وينبغي هنا أن نشير إلى واقعة مؤلمة وهي أن اليهود عندما يئسوا من استحصال موافقة السلطان عبدالحميد الثاني على الاستيطان في فلسطين لجئوا إلى طريقة لعلهم يرفضون الأمر الواقع على الدولة العثمانية فقاموا بإقناع بعض الأهالي في القدس بيع أراضيهم بمبالغ مغرية، ولم يكن هؤلاء يعرفون نوايا اليهود عندما عرضوا عليهم هذه المبالغ لأراضيهم. إلا أن مدير طابو القدس العثماني جمال الدين بن خوجا إسحاق الخربوطي لم يكن غافلاً عما يدور في خلد اليهود. فكتب إلى السلطان بأن اليهود قاموا بشراء أرض قيمتها 300 ليرة من العرب بثلاث أو خمسة أضعاف قيمتها الأصلية، واقترح شراءها لحساب الخزينة الخاصة... فتم له ما أراد[12].

سادساً – مباحثات الصهيونية مع السلطان عبدالحميد الثاني :

بعد أن وضعت الصهيونية العالمية مسألة الاستيطان في فلسطين نصب عينيها سعت إلى التعامل مع المسألة في محورين: الأول طرح الموضوع عالمياً، والثاني إقناع السلطات العثمانية بالموافقة على استيطان اليهود .

وفيما يتعلق بالمحور الأول فقد ذكر الكاتب الصهيوني الكسندر بيم في كتابه تيودور هرتزل والصهيونية السياسية إن هرتزل يبذل جهوداً مكثفة وهو يعرض المسألة الصهيونية على الدول الكبرى ويناشد الدول السبع الكبرى في ذلك الوقت مساعدتها بشان منح وطن لليهود. والأراضي التي يطلبها اليهود كانت تابعة للدولة العثمانية[13].

وفي الوقت الذي كانت الصهيونية العالمية تجند طاقتها لتهيئة الرأي العام الدولي والقوى العظمى لممارسة ضغوطها على الدولة العثمانية لم تصرف النظر عن طرق باب عبدالحميد واللجوء إلى المناورات السياسية معه .

ومن الشخصيات اليهودية التي قابلت السلطان عبدالحميد الثاني المستشرق المجري آرمينوس فابري، إذ ذكر إسرائيل كوهين في كتابه الحركة الصهيونية إن اليهودي المجري آرمينوس فابري التقى في 18 أيار 1901م السلطان عبدالحميد وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال لقاء موافقته على السماح لليهود بامتلاك أراضي في فلسطين، إلا أن السلطان عبدالحميد لم يلتفت إليه وطرده من قصره.

وفيما يتعلق بأرمينوس فابري فإنه كان من يهود المجر ومن أكثر الذين كتبوا عن عبدالحميد وشوهوا سمعته. ويبدوا أنه التقى بعبد الحميد عدة مرات ولم يفاتحه في المرة الأولى في مسألة استيطان اليهود في فلسطين، بل حاول استدراجه للموافقة، فكتب مقالة مطولة نشرها في جريدة المقطم تحت عنوان((جلالة السلطان عبدالحميد خان)) ثم أعاد نشرها في مجلة المقتطف ومما جاء فيها :

((لا أبالغ إذ قلت أنه لم يقم في تاريخ المشرق سلطان شرقي امتاز بحب الشغل والهمة التي لا تكل ولا تمل كالسلطان عبدالحميد و وإن اعتداله وحكمه على نفسه وأمياله هما اللذان حفظا أوروبا من الحرب العامة وأما أوصافه الذاتية فقد ألفيت فيه فوق ما سمعت من اللطف والرقة ودماثة الأخلاق وأنه قد خص وأمتاز عن أقرانه من ملوك الشرق بآرائه في الدين والسياسة والتعليم والتربية والتهذيب. أما في الدين فإنه من المتمسكين بعقائد مذهبه المحافظين على شعائر ديانته. ويجري على العلماء النعم والخيرات بلا حساب ولكنه لا ينسى رجال الدين في الطوائف الأخرى من سلطنته بل ينفحهم بالهدايا والعطايا وخصوصاً بطريرك الروم الأرثوذكس وبطريرك الأرمن ومن الغرائب المضحكة أن جماعة من رجال السياسة الأوروبيين يتهمونه بالتعصب في الدين ومعاداة المسيحيين من قومه وغير قومه، والحال أنه اتخذ كبير أطبائه الخصوصيين ورئيسهم من المسيحيين وجعل وزير ماليته غوبيان باشا المسيحي الأرمني وعهد بكثير من مهام سلطنته إلى غير المسلمين من رعيته. ولم ينسَ أرمينوس فابري الرد على منتقدي السلطان في استعمال الصرامة والتشديد في الحكم على الرعية وبث البوليس في كل أنحاء السلطنة وما اتهم به من الاستبداد ثم نظام البوليس الذي أتبعه ... إلخ، حتى بدا كما لو أنه كرس نفسه للدفاع عنه))[14].

غير أن أرمينوس فابري ما لبث أن غير رأيه في السلطان عبدالحميد حينما قال :

((لم أصادف قط كالسلطان عبدالحميد رجلاً لصفات خلقه البارزة مثل هذا التناقض والتطرف والاختلال، فالخير والشر، والسخاء والدناءة، والجبن والشجاعة، والدهاء والجهل، والاعتدال والتطرف وعدد كثير من الصفات المتناقضة تجدها في أعماله وأقواله، وإذا كانت لأخلاقه صفه سائدة فهي جبنه وتقلبه المستمر والخوف من الخطأ في السير، الأمور التي تركت لطخة ثابتة طبعت كافة أعماله. وهذه الصفة السيئة وهي الأثر القتال لتربية الحريم، أدت إلى تجميد أحسن نواياه وإلى تبليد قابلياته الفكرية التي لولا هذا لكانت رائعة والتي جعلت حكمه طالعاً سيئاً لبلاده))[15].

ولا داعي هنا أن نذكر الدوافع التي تكمن وراء هذا التناقض سوى القول إن فامبري رسم هذه الصورة الأخيرة للسلطان عبدالحميد الثاني بعد طرده من القصر أي بعد أن فشل في مسعاه .

وفضلاً عن هذا قام هرتزل بنفسه بإجراء الاتصالات بالسلطان عبدالحميد ومناورته السياسية في هذا الصدد لا يمكن تجاهلها وقد سجل كل ما دار بينه وبين السلطان في مذكراته فضلاً عن تفاصيل مساوماته على الرشاوي التي كان يعرضها على السلطان. وقد دفع ثمن مقابلة واحدة مع السلطان أكثر من 20 الف فرنك [16] .

والمعروف إن هرتزل سعى إلى إقامة العلاقات مع قصر يلدز (قصر السلطان عبدالحميد) فقصد استانبول خمس مرات حتى سنة 1902م وفي إحداها حظي بمقابلة السلطان عبدالحميد وأجرى معه لقاء مطولاً أشار فيه إلى أن اليهود يقيمون في كافة أرجاء البلاد العثمانية، وإذا لم يجد بنو إسرائيل على سطح المعمورة مكاناً يأوون إليه، وإن لجأوا إلى الشهامة التركية، فإن من الممكن أن يسكنوا في العراق وسوريا وحتى في داخل الأناضول. أما استيطانهم في فلسطين فإن هذه المسألة لا يمكن جعلها حتى مجرد موضوع للبحث١.

وعليه اقترح هرتزل منح مليون وستمائة ألف ليرة ذهبية للسلطان إلا أن السلطان أصر على موقفه وطرده من القصر فوراً[17].

ويبدو أن هرتزل تقرب من عبدالحميد وعرض عليه المغريات كلها والتي هي من المفروض أن تجعل عبدالحميد يرقص لها طرباً ومنها :-

1- إنشاء جامعة علمية في القدس تغني الشباب التركي عن الذهاب إلى أوربا للتحصيل العالي، فيكون التحصيل هنا في جامعة القدس عثمانياً لحمته وسداه الولاء للسلطان .
2- الصهيونية تجعل سياستها الخارجية تسير على المخطط الذي يرتضية السلطان بوجه عام .
3- تساعد الصهيونية الخزانة العثمانية على بناء وتجديد أسطولها وتقوية السلاح البحري .
4- تكون الصهيونية في فلسطين درعاً للسلطان، أذا ناوأه يوماً العرب وطلبوا منه ما فيه إزعاج له .
5- تقوم الصهيونية بمساعدة السلطان في قضاياه الدولية مع الدول الكبار[18].

وفي الوقت الذي كان هرتزل يبذل قصاري جهده لإقناع السلطان عبدالحميد، كان يواصل اتصالاته بالدول الأوروبية. وذكر ما يتعلق بهذه الاتصالات في مذكراته. فذكر أنه أرادهم أن يستخدموا الإقناع أو الضغوط لحمل السلطان على قبول منطقة للاستيطان اليهودي، وأن توضع تلك المنطقة بعد ذلك تحت حماية هذه القوى. وبإيجاز لم يكن هرتزل، على الرغم من تأكيده للسلطان من أن المستوطنين اليهود الأوروبيين سيكونون رعايا عثمانيين موالين للإمبراطورية، لم يكن مستعداً كلياً لوضع المستوطنين تحت سلطة إمبراطورية غير أوروبية، كان هذا نفاقاً لأن حماية أوروبية على المنطقة اليهودية كانت مجرد طريق إضافي للتدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية. ويحتمل أن يكون هذا سبب

خوف هرتزل من الاغتيال وسبب اقتراحه ممارسة الحماية البريطانية سراً. فهو لا يشير إلى كيفية عمل هذا الترتيب الغريب وربما كان اقتراحه نتيجة إدمانه الطويل جداً على الدبلوماسية السرية والمساومة والمراوغة.

وأراد هرتزل الحماية الألمانية لأكثر من أسباب سياسية، فقد اعترف بأن كثيرين سيهزون رؤوسهم لها ، أما هو فيؤمن بها، لأن العيش تحت حماية ألمانيا القوية والعظيمة والمحكومة بروعة والمنظمة ببراعة، لابد أن يترك التأثير الأعظم فائدة على الشخصية القومية اليهودية ... ولكن القيصر كان صديقاً طيباً جداً للسلطان عبدالحميد الثاني فرفض مقترحات هرتزل المريبة. وتحول هرتزل بذلك إلى بريطانيا.. كان هرتزل عملياً جداً فيما كتبه إلى الزعماء البريطانيين فاقترح في كانون الأول عام 1896م على اللورد سالزبوري خلق دولة يهودية تابعة وتتمتع بالحكم الذاتي في فلسطين، تشبه مصر، وتخضع لسيادة السلطان. إن هذه المسألة ممكنه إذا تم لنا الدعم، وأكرر بوضوح الدعم غير المنظور– من دولة كبرى... والفائدة التي يمكن أن تجنبها بريطانيا هي بناء خط حديدي عبر فلسطين يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي ويمكن أن تجني انكلترا هذه الفوائد بدون كلفة وبدون معرفة العالم باشتراكها ويمكن أن تكون لإنكلترا طريق احتياطية محايدة إلى الهند في حال بروز صعوبات في قناة السويس.

وحاول هرتزل، عندما اجتمع بملك إيطاليا في كانون الثاني عام 1904م أن يثير اهتمامه بمخطط طرابلس لحمل فائض الهجرة اليهودية إلى منطقة طرابلس تحت القوانين والمؤسسات الليبرالية الإيطالية . فأجابه الملك بأن ذلك أيضاً وطن لأناس آخرين. فرّد عليه هرتزل بأن تقسيم تركيا سيحدث حتماً ثم أنهى حديثه بقوله أن في مقدور إيطاليا أن تفعل الكثير من أجلنا لأن السلطان يخاف منها واعتقد هرتزل فعلاً أن دولة يهودية في الشرق لا تفيد دولة أوروبية واحدة فحسب بل أوروبا بكاملها وتحدث عن فوائد الدولة اليهودية عموماً بالنسبة لأوروبا. ويمكننا أن نعيد المنطقة المريضة في الشرق إلى حالتها الطبيعية . ويمكننا بناء طرق حديدية في آسيا وهي الطرق الرئيسية للشعوب المتمدنة، ولن تكون هذه الطرق الرئيسية عندئذ في أيدي أية دولة أوروبية واحدة [19] .

كان هرتزل يبدو وكأنه يتعاطف مع الأتراك، إلا أنه كان في السر يتآمر على الدولة العثمانية وسلطانها عبدالحميد بالذات. وكان يتحين ضعف السلطان ليفرض عليه مطالبه، فلم يكن يطرق بابه إلا عندما يتعرض السلطان إلى متاعب. ولم يكن يتخلى في أي وقت عن تقديم مغرياته للسلطان عندما التقى به عن هذا بل دار الحديث عن ديون الإمبراطورية وإمكانية التغلب عليها بمساعد الأموال اليهودية[20].

وكما ذكرنا فإن السلطان عبدالحميد وافق على استيطان اليهود في كافة أرجاء الإمبراطورية العثمانية باستثناء فلسطين. وبطبيعة الحال رفض هرتزل هذا المقترح. وعلى الرغم من انه زار إستانبول خمس مرات، إلا انه لم يكن يظفر بشيء فيرجع فاشلاً دون أن يتمكن في أكثرها من مقابلة السلطان .

وفي أواخر أيام هرتزل اقترح عليه أحد الرجالات الأتراك وهو نوري بك قنصل تركيا في فيينا السويدي الأصل وقدم عليه مشروعاً غريباً بالحصول على مبتغى الصهيونيين بالقوة وكان مقترحه بأن يبحروا في باخرتين، لنسف يلدز قصر السلطان عبدالحميد، وترك السلطان يهرب أو القبض عليه وتعيين سلطاناً أخر ولكن قبل ذلك تقام حكومة مؤقتة تعطيكم الامتياز لفلسطين.

ورد عليه هرتزل بالتفكير في الأمر لأرى ما إذا كان من الممكن أن أهتم بعمل كهذا ولو كان في حديث غير رسمي .

وقرر هرتزل بالفعل اللجوء إلى هذا المشروع إذا فشلت مساعيه الأخيرة السلمية في استانبول. وعلى الرغم من هذا فقد كان يخاف من عواقب المشروع لو فشل وأن يؤدي على مذبحه هائلة سُيمنى بها اليهود في الدولة العثمانية. فأعتذر لصاحب المشروع عن عدم تمكنه من قبول اقتراحه .

دور الصهاينة في تشويه سمعة عبدالحميد وتنحيته عن العرش :

مات هرتزل بعد أربعة أشهر من لقائه مع نوري بك. وإذا كان هرتزل أعتذر عن القيام بأي عمل عسكري ضد السلطان عبدالحميد وفضل الطرق السياسية والدبلوماسية مع الدول العثمانية والدول الغربية إلا أن أسلافه غيروا طريقة تعاملهم مع المسألة. وبعد منيت مساعي الصهيونية بالفشل ولن ينجحوا في إقناع السلطان عبدالحميد بالموافقة على استيطان اليهود في فلسطين ولن يتمكنوا من حمل القوى الأوروبية على إقناع السلطان أو الضغط عليه، وجدوا في شخص عبدالحميد عدوا لدوداً لهم فهوا الذي يحول دون تحقيق أمنيتهم القومية ويصر على موقفه الثابت، ولهذا غيروا طريقتهم ليبدؤوا مرحلة جديدة وهي :مواجهة السلطان سياسياً وعسكرياً والقضاء عليه وإبعاده عن مسرح الإمبراطورية مهما كلف الأمر.

وقبل هذا وذاك نجحت الصهيونية في تشويه سمعة السلطان عبدالحميد بغيه حشد الرأي العام ضده. وقد أفصح عن هذا الأمر ضابط يوناني يدعى ليونيدوس دواس في كتاب سري اقتصر توزيعه على ضباط الجيش اليوناني طبع سنة 1949م فذكر((إن الصهاينة هم الذين أطلقوا على السلطان عبدالحميد أسم السلطان الأحمر لأنه لم يصبح أداة طيعة لأمالهم الشيطانية وقاموا بعزم ثابت. واتخذوا جبهة معادية ضده فقاموا ببث دعايات مغرضة عن معاملاته السيئة للطوائف غير المسلمة التي كانت تحت حكمه وأنه يضطهدهم. ثم أردف قائلاً إن الصهاينة هم الذين حرضوا البلقان ضد الدولة العثمانية))[21].

كما كان دور الصهيونية كبيراً في تأسيس جمعية الاتحاد والترقي التي أطاحت بالسلطان عبدالحميد، وليس أدل على هذا مما أوردته جريدة التايمز في عددها الصادر في 1911/7/11م ((من المعروف أن لجنة سلانيك قد تشكلت تحت رعاية ماسونية بمساعدة اليهود والدونمه في تركية ومركزهم في سلانيك. وأن اليهود مثل عمانوئيل قره صو وسالم وساسون وفارجي ومزلياح ومن الدونمه مثل جاويد وعائلة بالجي قد لعبوا دوراً بارزا في تنظيم اللجنة وفي مداولات جهازها في سلاينك))[22].

وإلى جانب لجنة سلانيك كان هناك جمعية ثانية تسعى هي الأخرى إلى الإطاحة بنظام عبدالحميد وهي جمعية تركية الفتاه التي اتخذت من باريس مركزاً لها، وكان معضم أعضائها ينتسبون إلى الماسونية. ولم يكن هذا خافياً على السلطان عبدالحميد إذ ذكر في مذكراته :

((وقد تأكد لدى أن الذين أعرفهم (من أعضاء جمعية تركية الفتاه). هم كلهم ماسونيون ومرتبطون بالمحافل الإنكليزية ويتلقون مساعدات مالية منها. وسيكشف التاريخ فيما إذا كانت هذه المساعدات إنسانية أو سياسية ...))[23] .

ورأى قره صو (كاراسو) أن وجود جمعيتين احدهما في باريس والأخرى في سلانيك لا يخدم مصالحه فعمل جاهداً على توحيدهما. وتم له ذلك عندما أسس منهما جمعية واحدة وهي جمعية الاتحاد والترقي وجعل من المحافل الماسونية المنتشرة هنا وهناك مراكز لها وبدأ أعضاء الجمعية في بنشاطاتهم بالاتصال بضباط الجيش وطلاب الدارس العسكرية لحشدهم ضد السلطان عبدالحميد.

ويأتي الانقلاب العثماني سنة 1908م وتنحية عبدالحميد عن العرش في سنة 1909م أبرز أعمال الجمعية التي قامت بها. وصخرة الصهيونية العالمية كل إمكاناتها الإعلامية والمادية من أجل تحقيق الانقلاب على عبدالحميد فما نشرته من معلومات مغرضة مضللة ضد السلطان كان كافيا لشل شعور الناس. كما قدم قرهصو إلى أحد أعضاء الجمعية أربع صفائح مملوءة بالليرة الذهبية لتوزيعها على الثوار .

ثم حركت الجمعية قوة عسكرية من سلانيك إلى قصر السلطان. ولم يكن السلطات ميالاً إلى إراقة الدماء وطلب من حرس قصره رفع الأعلام البيضاء. فسقط القصر، ودخل عليه أربعة أشخاص ليلعنوا له أن الأمة عزلته، وكان بينهم قرهصو. وعندما رآه السلطان أومأ برأسه إليه سائلاً: حسناً وما شأن هذا اليهودي في مقام الخلافة .

وأخذ السلطان إلى منفاه في سلانيك ليبقي هناك ما تبقى من عمره، ولكن لما تفجرت الحرب البلقانية أعيد إلى استانبول حيث توفي في سنة 1918م[24] .

وبعد خلعه ومنفاه في سلانيك كتب عبدالحميد رسالة إلى أستاذه في الطريقة الشاذلية محمود أبي الشامات في دمشق يذكر فيها كيف ضحى بعرشه من أجل فلسطين ومما يذكر فيها :

((إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا على بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأراضي المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا المقترح. وأخيراً وعدوا بتقديم 150 مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا العرض بصورة قطعية أيضاً. وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الأتي: ((إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً – فضلاً عن 150 مليون ليرة إنكليزية ذهباً – فلن أقبل بعرضكم هذا أبداً. لقد خدمت الأمة الإسلامية.. ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسَّود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي والخلفاء العثمانيين لهذا لن أقبل بعرضكم بوجه قطعي أيضاً .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير .

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة – فلسطين ..))[25] .

الهوامش

1- مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة محمد حرب، ط 4، 1998م، دار القلم، دمشق سوريا، ص 34.

2- علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ط2، د . ت، ص 317.

3- Tarik Zafer tunya : turkiye, de siyasal Partilar, Istanbul, 1998,.

4- M. Lutfullah Karaman, Filistin, TDV. IA, Istanbul 1996, XIII, 93.

5- محمد فايز عبد أسعد، موقف الحكومات الألمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين من 1800-1940، ضمن المؤتمر الدولي الثالث بتاريخ بلاد الشام، المجلد الثالث، عمان الأردن، ط1، 1983، ص 9.

6- Karpat; Ottoman Popuiation 1830-1914, The Univarsity of Wisconsin press, 1984, p.167,184.

7- Cevat Rifat Atilhan, 31 Mart Faciasi, istanpul 1969,p. 62-63.

8- Abdulhamid, in Hatira Defitari, istabul, 1975, p. 73.

9- خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، 1908-1918م، بيروت 1973م، ص 24.

10- مذكرات السلطان عبدالحميد، المرجع السابق، ص 35.

11- عبدالعزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مطبعة جامعة القاهرة، مكتبة الأنجلوا مصرية، القاهرة، 1986م، ج4، ص2284.

12- محمد فايز عبد أسعد، المرجع السابق، ص54.

13- ابراهيم بيك حليم، التحفه الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004م ، ص 371.

14- مذكرات السلطان عبدالحميد، المرجع السابق، ص85.

15- أرنست رامزور، تركية الفتاة وثورة 1908م، ترجمة احمد صالح العلي، بيروت، 1960م، ص-ص 47-48.

16- ج. هـ. جانس، الصهيونية وأسرائيل وأسيا، ترجمة راشد حمد، بيروت، 1972م، ص 77.

17- Tarik Zafer Tunya, 3;581.

18- عجاج نويهض، بروتكولات حكماء صهيون، بيروت، 1967م، ج2، ص 235.

19- أنظر :ج. هـ. جانس، 78 – 80 ، عن مذكرات هرتزل 794، 693، 501، 1474، 338 علي التوالي .

20- يوميات هرتزل، إعداد أنيس صايغ، ترجمة : هلدا شعبان صايغ، نشر مركز الأبحاث التابع لمنظمة التتابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1968، ص 46، 173-176 .

21- Osmanli Ansiklopedisi Istanbul, 1996, vi, 243-249.

22- خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص 44.

23- Abdulhamid,in Hatira Defteri, 60.

24- Atilhan 149, 175, 203- 204, Ayse osmanoglu, Badam Abdulhamid, Istanbul,

25- خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص 401- 403.